

## موكب النصر

كان الأمير حنا - أو كما كانوا يسمونه حنا القبادوقى، نسبة إلى أصل موطنه قبادوقيا فى آسيا الصغرى - أحد المغامرين الكثيرين الذين كانوا يستولون على أمور الدولة فى عهد الإمبراطور يوستينيانوس. كان رجلاً لا تقف مطامعه عند حد، ولا يتردد فى وسيلة توصله إلى أغراضه.

كان شرهاً إلى السلطان والمال، جعل كل حياته لاقتناص فرائسه والإيقاع بأعدائه، لا تأخذه فى ذلك وخزة من ضمير، ولا يرجعه عن عزمه تورع عن جريمة. وكان مقداماً فى الحروب كأنه شهاب ينقض على العدو، لا يبالي ما وقع فى سبيله، صارم القلب، لا تهزه رحمة وهو يخوض الدماء، واسع الحيلة، لا تخيب له مؤامرة ينصبها ويحكم تدبيرها، فكان الإمبراطور يلجأ إليه فى الملمات، ويؤثره لما أنس فيه من شدة البطش وإحكام التدبير؛ ولكنه كان مع ذلك هدفاً للعداوات الثائرة، والوشايات والمكائد، يحس أحياناً أن الأرض تتزلزل تحت قدميه، والهلاك يترصد له عند منعطفات الطرق وثنايا أبهاء القصور. ولهذا أحاط نفسه بالجواسيس والأعوان، يستعين بهم على كشف احتيالات أعدائه وحماية نفسه منهم، أو التخلص من شباكهم، حتى لم يخل القصر الملكى نفسه من هؤلاء الأعوان المخلصين.

وكانت الإمبراطورة من أشد أعدائه خطرًا عليه. فقد كانت تعرف ما عنده من قوة وخبث، ولكنها كانت لا تكشف له عن عداوتها، ولا تظهر له خوفها، بل كانت تدرايه وتتحمى التعرض له تعرضًا ظاهريًا، مكتفية بأن تتعقبه بجواسيسها وأعوانها لكشف خطته والاحتياط لإحباط ما يمسها منه من بعيد أو من قريب، فإنه لم يغيب عن ذكائها ما فى مكاشفته بالعداوة من خطر على نفسها، وهو الرجل المخيف الذى يعرف ماضيها وأسرارها، فقد عرفها منذ كانت الراقصة الداعرة فى حانات القسطنطينية ومسارح لهوها، وكان أحد طلاب المجون معها وهى تجوب أنحاء الدولة الرومانية من شرقها إلى غربها فى تجارتها الدنسة.

استقبل الأمير حنا زائريه العربيين بعد أن قدما إليه رسائل صديقه الحارث الغساني ملك العرب بالشام، وجعل يتفرس فى وجهيهما بعد أن عرف ما أتيا له، فرأى فيهما شابين جميلين تبدو عليهما دلائل الشجاعة والتهور، وعلم أنهما إذا أخلصا له كانا من خير الأعوان على خوض الدماء أو مغامرات القصور، وطوى الرسائل بعد قراءتها وذهب فى صمته يتصور ما يمكن أن يستفيده منهما فى خطته والوصول إلى أغراضه، ثم نظر بعد حين إلى عمرو متبسماً، وقال له فى صوت هامس بعربية واضحة: «ولكنك أيها الفتى لا تدرك ما فى وجودك هنا من خطر عليك».

فنظر إليه الفتى نائر الأنفاس وأجابه مندفعًا: «أى خطر يا سيدي؟ إننى قد عشت كل حياتى ألقى الأخطار».

فوضع حنا يده على كتف الشاب معجبًا بجوابه وقال له: «ولكنك تقول قولاً لا يسع من يسمعه منك إلا أن يضحك ويتهمك بالجنون، إنك تزعم زعمًا لا يخطر على بال أحد أنه صادق».

فأسرع الفتى وأخرج من صدره لفافة وجعل يفكها فى لهفة حتى كشف الصندوق الذى فيها وأخرج منه عقدًا ورفعها إلى الأمير ناظرًا إليه وقال: «هذا هو دليلى إنها تعرفه».

ففتح حنا عينيه مندهشًا، وأخذ العقد منه وجعل يتأمله، فمد الشاب يده إليه وأمسك بالحجر الأحمر الذى فى وسطه وقال فى حماسة: «اقرأ. اقرأ أليس هذا اسمها؟».

فرفع حنا الحجر إلى النافذة أمام الضوء وقرأ الكتابة المنقوشة عليه، ثم رده إلى الفتى، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة. وعاد إلى الصمت حينًا، والابتسامة تخبو عن وجهه شيئًا فشيئًا، حتى حلت محلها عبسة صارمة، فقبض فمه وغشيت جبهته سحابة قاسية، ثم أمال رأسه قليلا وقال وهو ناهض: «سأراكما فى المساء فإنى ذاهب الآن إلى القصر استعدادًا لموكب الإمبراطور. ولكما إذا شئتما أن تقيما هنا أو أن تذهبا لرؤية الموكب ثم تعودا».

ثم ابتسم لهما ابتسامة خاطفة، وأسرع خارجًا وتركهما ينظران إليه حينًا وهو يهمرج فى ضجيج سلاحه ودورعه.

وكان امرؤ القيس يؤثر البقاء طلباً للراحة بعد سفره الطويل، ولكن صاحبه لم يملك نفسه من إطاعة لهفته أن يرى الموكب، لعل عينه تقع على الشخص الذي ما برحت صورته تملأ ذهنه في حله وترحاله. فذهب معه امرؤ القيس مكرهاً وخرجا إلى طرق العاصمة، واتجها مع الناس إلى حيث يتجهون لرؤية الموكب العظيم.

كانت القسطنطينية العظمى ترتج وتموج بمن فيها من وفود وجنود، وتهتزو تطرب لما يطالها من مواكب وأفراح يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، احتفالاً بالنصر الباهر الذي أحرزته جيوش قيصر في أرض إيطاليا. لقد عاد القائد المظفر (بلزاريوس) من أرض رومة متوجاً بإكليل المجد، بعد أن دانت له جيوش القوط، وبعد أن سلب كنوزهم وغنم أموالهم، هؤلاء القوط الذين كانوا فزع رومة، والذين حطموا دولتها وأزالوا ملكها وثلوا عرش أباطرتها، قد صاروا رعية القسطنطينية، وذلوا لسلطانها، وعاد ملكهم في ركاب القائد المنصور ليلتمس عفو قيصر، ويستظل بظله، كأن قومه لم يكونوا من قبل مبعث الرهبة للرومان، تتحاماهم الجيوش، ويتزلف إليهم الأمراء، ويتوسل إليهم الملوك بالهدايا والرشى لكي يشتروا منهم سلامتهم وأمنهم.

سارت المواكب يتلو بعضها بعضاً قاصدة إلى الكنيسة العظمى التي بناها قيصر، كنيسة صوفيا، وكانت في أول رونقها وجدة نشأتها

لم يمرض على تمام بنائها إلا سنتان، ووقف الناس ألوفاً مؤلفة يزدحمون على جوانب الطريق، ليحيوا قيصر العظيم في ذهابه إلى الصلاة في كنيسة الجديدة شكرًا لله على ما أنعم عليه من جمع أطراف الدولة وإعادة غربها إلى شرقها، حتى إذا ما طلعت طلائع موكبه علا ضجيجهم بالتحية، وهم يلوحون له بأوشحة زرقاء يشيرون بها إلى أنهم الحزب الأزرق شيعته وأولياؤه وأنصاره على عدوه وعدو زوجته، الحزب الأخضر.

وطلع الإمبراطور على الجموع يلبس حلة الملك الأرجوانية، وكان ينظر إلى الجموع المحتشدة ويومئ إليها بالتحية في هدوء ووقار وعطف، وقد ركب عربته الحربية واقفاً فيها بقامته العالية وجسمه النحيف المتين البناء، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان بنور الزهو والسرور.

وكانت الإمبراطورة (تيودورا) إلى جانبه في حلتها البيضاء الناصعة، وقد وضعت على رأسها تاجاً من الجواهر المؤتلفة، وجعلت في عنقها عقدًا من اللؤلؤ النادر، وفي معصمها وحول ذراعيها أساور من الذهب والياقوت والزبرجد، ولكنها كانت تبدو مع كل هذه الحلى رشيقة في قدها الضئيل. وكان وجهها الشاحب الجميل تملؤه نضرة من ماء الشباب، ولمعة مترققة من روح الحياة الفياضة وكانت عينها السوداءوان تبتسمان إلى الجموع المزدحمة وهي تحييها هاتفة بحياتها ومجدها في حماسة وإعجاب.

وكان إلى جانبى العربية جماعة من القواد يأخذون الأنظار بأسلحتهم اللامعة ودروعهم الصفراء المتلألئة، وكان الأمير حنا أقربهم إلى الملكة، وقد وضع يده على جانب العربية، ومشى بقامته العالية وخطاه القوية ينظر أمامه نظرتة الصارمة القوية.

ووقف امرؤ القيس وصاحبه عمرو بن قمية بين الجموع المحتشدة فى جوار الكنيسة وقد بهرت أنظارهما وخشع قلباهما لما أبصرا حولهما من آيات المجد والجمال التى لم يسبق لهما عهد بمثلها فى صحرائهما الهادئة.

وما كادت الإمبراطورة تقرب من موضعهما وتلفتت إلى جهتهما بعينيها الممثلتين حلاوة وحياسة، حتى صاح امرؤ القيس غير قادر على كبح نفسه: «أى عينين يا عمرو! إن فيهما لسحرًا».

فلم يجبه عمرو على قوله، لأنه كان عند ذلك مأخوذًا مضطرب القلب ينظر نحوها فى لهفة وشوق، وكأنه يريد أن يندفع إليها ويلقى بنفسه بين ذراعيها ونظر إليه امرؤ القيس، فرأى ما على وجهه من التحرك والوجد، فأمسك عن حديثه لحظة، ثم وضع يده على كتفه وقال ضاحكًا: «وما هذه الفتاة بأمر لمثلك يا عمرو».

فوثب الفتى فى موضعه، كأنه يريد أن يتشبث بشيء يخاف فواته، ولم يملك نفسه أن صاح صيحة عالية غلبت الضجيج الذى يدوى حوله فقال: «هى. هى! إنها هى وحق مناة!».

وكانت العربية قد قربت من موضعهما فالتفتت الملكة عند ما سمعت هذه الصيحة العربية، واخترقت ببصرها الجمع الحاشد، تريد أن تنظر إلى صاحبها، فاندفع عمرو يخرق الصفوف في حركة عنيفة، وجعل يصيح قائلاً: «أماه! أماه!».

فقبض امرؤ القيس على ذارعه بقوة وجذبه إليه قبل أن تتجه إليهما أنظار الناس أو يفتنوا إلى ما يقوله صاحبه، ولكن عين الملكة كانت قد وقعت على الشاب، ولم تخف على امرئ القيس حركة اضطراب بدت عليها، وحمرة شديدة صبغت وجهها، وهى تتحرك فى مجلسها بجوار زوجها وترد التحية للناس بما استطاعت من تماسك وهدوء.

ولما بلغ الموكب باب الكنيسة، وقام الإمبراطور مستعداً للنزول، مالت الملكة إلى القائد حنا الذى فى جوارها وألقت فى أذنه كلمات، وأشارت له إشارة خفيفة إلى جهة الشاب العربى، وكان نظر عمرو لا يزال متعلقاً بالملكة يرقب حركاتها وتشوف إلى طلعتها، فلما رآها تكلم القائد صاح يخاطب صاحبه: «لقد عرفتنى»، ثم عاد فصاح مشيراً إلى القائد: «أليس هذا هو الأمير؟ أليس هو حنا؟».

فالتفت بعض الواقفين من الروم إلى الرجلين الغربيين عند ما سمعاهما ينطقان باسم ذلك الأمير المعروف، فخشى امرؤ القيس أن يفتضح أمرهما، فأسرع فضرب بيده إلى ذراع صاحبه وجذبه بين الجموع ليبعد به إلى خلوة، لعله يجمع نفسه

إليه، فلقد طالما سمع بجواسيس قسطنطينية ووعورة مسالكها  
وفتكات أهلها.

وكانت الملكة فى أثناء ذلك قد قامت وراء زوجها الذى وقف  
فى انتظارها ماداً يده ليسانعدها على النزول، واتجه بها إلى باب  
الكنيسة بين صفين من الجنود فى عدة تامة من الدروع والسلاح،  
وسار القواد فى آثارهما راجلين إلا الأمير حنا، فإنه اتجه إلى  
بعض الجنود وأسّر إليهم بكلمات، ثم عاد مسرعاً فدخل الكنيسة  
بين الصفوف التى ازدحمت بعد دخول الركب الملكى.  
وأخذت أصداء الأناشيد تتجاوب وتتصاعد، ممزوجة بعطور  
الند والعود الفائحة فى أرجاء الكنيسة.

\*\*\*